

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يوعك فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا..

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي باب الصبر جاء من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكا شديداً، قال: ((أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم)) قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: ((أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطت عنه ذنبه كما تَحُط الشجرة ورقها)).^(١).

فعلاقة هذا الحديث بباب الصبر واضحة، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم - وهو أفضل من وطئ على الأرض - عليه الصلاة والسلام - كان يصيبه من ألم الحمى ما يقع على رجليين اثنين، وأنتم تعرفون الحمى حينما تقع بالواحد مما كيف تتهار قواه، بحيث إنه لا يستطيع أن يقوم ويتصرف في شؤونه، بل هو في حال الله يعلمها، فإذا كان ذلك الذي يقع لهذا الإنسان فتهده قواه بسببه يقع للنبي صلى الله عليه وسلم - ضعفه لهذا بدل دلالة واضحة على أن شدة البلاء، وأن شدة المرض لا تعني أن الله - عز وجل - يمتنع العبد، فإذا وقع فيه بليّة أو نازلة فلا يعني ذلك هو انه على ربه - جل جلاله -، وإنما يُشدّد عليه في هذا، ويصبر، فهو مأموم بالصبر، والصبر واجب، فيكون ذلك أعظم في أجره، فإنّ عظم الجزاء على عظم البلاء.

وهذا ابن مسعود لربما رأى ما بالنبي صلى الله عليه وسلم - من شدة الحرارة، أو أنه رأى ما به مما يbedo عليه من أثر المرض الشديد.

قال له: يا رسول الله، إنك توعك وعكا شديداً، يعني: أن الحمى تصيبك إصابة بلغة، والوعك هو الحمى وحرارتها وشدتها.

قال: أجل، وهذه الكلمة أبلغ في الإجابة، كأنه قال: نعم، لكنه جاء في لفظة أبلغ في أداء المعنى وتحقيق الجواب، قال: أجل، يعني: أن الأمر كذلك، ((إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم)) وهو أشرف الخلق، فإذا وقع بك شيء تكرهه فينبغي أن تنتذر ذلك، أن هذه الأعراض التي تصيب الإنسان من جملة ما يُحثّ به عنه الخطايا، ويرفعه في درجات الجنة عالياً، فلا ينبغي له أن ينزعج، وأن يتململ، وأن يتضجر، فنحن نرى من الناس من إذا أصيب بالحمى أو نحو ذلك انفرط صبره، وجعل يتخطّط، ويتدمر، وهذا أمر لا يجوز، المرض لا يرتفع بتدمّره، ولا يستفيد شيئاً، فالتدمر ليس علاجاً، وكذلك أيضاً هو حينما يفعل ذلك يفقد أجره فلا يكون له من هذا التدمير إلا تعذيب النفس، وتعذيب من حوله ممن حضره من أهله ونحو ذلك، فإن هذه الأمور تؤثر

^١ - أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأخير (٢١٣٩/٥)، رقم: (٥٣٢٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والأداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٤/١٩٩١)، رقم: (٢٥٧١).

في النفوس تأثيراً ظاهراً، فإذا كان هذا الإنسان المريض يتلوه ويتضجر ونحو ذلك فإن ذلك ينعكس ألمًا وحزناً في نفس ذويه وأهله، لكن لو أنه صبر وحمد الله -عز وجلـ، ولم يبدُ منه شيء لكان ذلك خيراً له. الإمام أحمد رحمه الله -كان بين في مرضه الذي وقع له، فقيل له: بلغنا أن الأنين يكتب، فما سمع منه الأنين حتى مات، الأنين! فكيف بالتسخط والتضجر والتذمر؟!

قال ابن مسعود: ذلك أن لك أجرين؟، قال: ((أجل، ذلك كذلك)) يصيبيه المرض مضاعفاً، فيكون له الأجر مضاعفاً.

ثم بين النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا ليشعر أن البلاء العظيم إذا نزل بالمؤمن غير النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ذلك يكون أعظم في جزائه، فقال -عليه الصلاة والسلام-: ((ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطت عنه ذنبه، كما تَحَطُّ الشجرة ورقتها)) أخرجه البخاري ومسلم.

ولفظة "فوقها"، تحتمل معنيين:

الأول: ما هو أدق منها، وأدنى منها، وهذا لا يتصور -أقل من الشوكة-، مما فوقها يعني في الدقة والصغر. الثاني: مما فوقها يعني ما هو أكبر وأعظم منها، وهذا هو الأقرب المتدار، لأن الإنسان عادة يعبر بالشوكة عن الأدنى، ولذلك قال صاحب النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو على خشبة الصليب: "ما أحب أن أكون في أهلي ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- تصيبيه شوكة" ذكر الأدنى والأقل، تقول: فلان لا أحتمل أن تصيبيه شوكة مثلاً، لا أحب أن تصيبيه شوكة، بمعنى: أنك ذكرت الأقل.

قوله: ((إلا كفر الله بها سيئاته)) والتعبير بالحصر، بالنفي والاستثناء، مثل لا إله إلا الله، أقوى صيغة في الحصر.

((ما من مسلم)) يعني: سواء كان مطيناً أو فاسقاً، على عبادة عظيمة أو هو مقصر إذا وقع له البلاء والمرض فإن الله يكفر عنه من ذنبه.

لم يقل: ما من مسلم تقى، ما من مسلم عابد، ما من مسلم مشمر في طاعة الله، بل قال: ما من مسلم أى مسلم يقع له شيء من ذلك إلا كفر الله بها سيئاته، ولم يذكر هنا قضية الاحتساب، فإذا أخذنا بظاهره نقول: إنه يؤجر على ذلك وإن لم يستحضر الاحتساب، لكن بشرط أن لا يتسطع؛ لأن التسطخ حرام، اعتراض على قدر الله -عز وجلـ.

((إلا كفر الله بها سيئاته)) والسيئات إنما سميت بذلك؛ لأنها تسوء أصحابها حينما يقرؤها في كتابه في اليوم الآخر، بينما يرى المعصية مكتوبة، وهذا وجہ في تفسير السيئات.

((وَحُطَتْ عَنْهُ ذَنْبُه)) توضع عن ظهره، لأنها أحمال على ظهره تقله وترهقه فتوضع هذه الأحمال والذنوب كما تحط الشجرة ورقها، أرأيتم إلى الشجر في فصل الخريف؟ لا تبقى إلا الأغصان، فكذلك

المرض، ولذلك جاء في آثار وأحاديث: أن أهل البلاء يتمنون أن ذلك قد صوّع عليهم في الدنيا، لما يرون من الجزاء في الآخرة^(٢).

نَسْأَلُ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ وَالثَّباتَ، وَأَنْ يُشَرِّحَ صُدُورَنَا وَيُبَيِّسِرَ أَمْوَارَنَا، وَيَغْفِرَ لَوَالدِّينَا وَلِإِخْرَانَا الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يلْطِفَ بَنَا وَيَصْلِحَ شَأْنَنَا كُلَّهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ مَوْتَانَا، وَاشْفَعْ مَرْضَانَا، وَعَافِ مَبْلَانَا، وَاجْعَلْ آخِرَتَنَا خَيْرًا مِنْ دُنْيَانَا، وَصَلِّ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.

^٢ - من ذلك ما جاء عن جابر رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يُودُ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنْ جَلُودَهُمْ كَانَتْ قَرْضَتِ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيْضِ)) أخرجه الترمذى، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٦٠٣/٤)، رقم: (٢٤٠٢).